

# تلازم للطباء العرب

د. نشأت الحمارنة

كلية الطب - جامعة دمشق

وجرى ابن أبي أصيبعة الى حد غير قليل في أسلوبه في الترجمة على سنن اسحاق ابن حنين في تأريخه للأطباء والحكماء واسحق هذا هو أحد أبناء حنين بن اسحق الترجمان العظيم .. وان كان الابن لم يبلغ مرتبة أبيه في الطب أو الترجمة الا أنه كان متميزا بميله الى ( تاريخ الطب ) .. فهو أول مؤرخ وضع كتابا متخصصا لتراجم الاطباء .. لذلك حق لنا أن نسميه ( رائد تاريخ الطب ) في الاسلام ..

وثمة بعض ما يؤخذ على ابن حنين في كتابه هذا ، منها أنه لم يذكر الكثيرين من الاطباء العرب بعد الاسلام . ويبدو أنه اكتفى بالقدر الذي ورد في كتاب يوحنا النحوي . الذي عاش في الاسكندرية في القرن السادس الميلادي . ونحن لا نعرف حتى الآن لماذا اقتصر اسحق على ذلك .. فانه على الرغم من

ان مصدرا الرئيسي لدراسة حياة ومؤلفات الاطباء العرب والوقوف على كتبهم في العصر الاسلامي هي كتب تراجم الرجال . وأعظم هذه الكتب وأوفاهها هو كتاب ( عيون الانباء في طبقات الاطباء ) الذي صنفه ابن أبي أصيبعة في القرن السابع الهجري ( الثالث عشر الميلادي ) .

ولعل أقدم هذه الكتب يعود الى القرن الثالث الهجري .. ( ٩ الميلادي ) .. فان اسحق ابن حنين . هو الذي ألف أول كتاب عربي في تراجم الاطباء ( تاريخ الاطباء والحكماء ) .

وابن أبي أصيبعة .. كان طبيب عيون في صرخد - وهي المعروفة اليوم بصلخد .. فقد دخل التاريخ من أوسع أبوابه بمؤلفه هذا .. الذي ما يزال مصدرا رئيسيا لدارسي تاريخ الطب .. وهو يبدأ بذكر الاطباء من أقدم العصور .. وينتهي بتراجم أطباء عصره وزملائه .

اعتماده الواضح على كتاب يحيى (يوحنا) النحوي  
 .. كان قادرا أن يترجم لبعض الأطباء .. كحنين  
 والده .. أو يوحنا بن ماسويه .. أستاذ والده ..  
 ولعل الدراسات في تاريخ الطب تفسر لنا في  
 المستقبل أسباب احجام اسحق .. هذا ..  
 وبطبيعة الحال فان مؤرخي القرن الثالث  
 للهجرة ( التاسع للميلاد ) .. عرضوا في كتبهم  
 بعض قصص الأطباء وسيرهم .. الا أن اسحق بن  
 حنين كان السباق الى ذلك اذ أفرد كتابا خاصا  
 لهذا العلم الجديد ..

ويمكن لنا أن نعود الى ما كتبه الطبري  
 ( ق ٣ هـ = ٩ م ) أو اليعقوبي ( ق ٣ هـ = ٩ م )  
 أو المسعودي ( ٣ - ٤ هـ = ٩ - ١٠ م ) للبحث  
 عن مادة أولية لهذه الدراسة .

الا أن الامر لا يحتاج - بالنسبة الى  
 القارئ العادي - الى هذا العناء .. لان القرن  
 الرابع الهجري جاء بكتابين عظيمين في هذا  
 الموضوع .

فابن النديم وضع كتاب ( الفهرست ) في  
 نفس الوقت تقريبا الذي ألف فيه ابن جلجل  
 كتابه ( طبقات الأطباء الحكماء ) ( حوالي ٣٧٧ هـ ) .  
 وواضح أن كتاب ابن جلجل متخصص .. بينما  
 كتاب ابن النديم كتاب عام في التراجم  
 والبيلوغرافيا .

وقد قيض الله لكتاب الفهرست مستشرقاً  
 جليلاً هو الاستاذ فلوغل الالماني .. فقد حقق  
 الكتاب وطبعه سنة ١٨٧٢ في لايبزغ ( وان كانت  
 هذه الطبعة ناقصة ) .. بينما ظل كتاب ابن جلجل  
 حتى سنة ١٩٥٥ منتظراً حظه في النشر .. الى أن

جاءه الاستاذ فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار  
 الكتب المصرية آنذاك ... فحققه وعلق عليه  
 ونشره .

وابن جلجل هذا عاش في الاندلس وكتب  
 كتابه بطبيعة الحال دون أن يطلع على كتاب  
 الفهرست الذي كتب في المشرق في العام نفسه  
 تقريبا .. وهو في كتابه هذا لم يكن المجلي بين  
 الاندلسيين فحسب في هذا الحقل من حقول تاريخ  
 العلم .. بل افرد بان اطلع على بعض المصادر  
 اللاتينية المتوفرة في الاندلس والتي لم تكن  
 معروفة في الشرق .. ففاق مؤلفي الشرق باطلاعه  
 على هذه المصادر .. وحده .. وكانت المؤلفات  
 اليونانية ( وهي التي ظفربها المؤلفون الشرقيون ) ..  
 معروفة لديه أيضا .

ومن الجلي اليوم أن المعرفة العصرية ..  
 قد تجاوزت كثيرا ما كتبه العرب في القرنين الثالث  
 والرابع الهجري .. بل وفي القرن السابع الهجري عند  
 ( ابن أبي أصيبعة ) .. فيما يتعلق بالأطباء قبل  
 العصر الاسلامي .. وتكمن قيمة هذه المصادر  
 العربية .. في انها تعطينا فكرة عن معرفة العرب  
 بالقدماء في ذلك العصر . وعلى سبيل المثال ..  
 فاننا لا يمكن أن نعتد على ما ذكره المؤلفون  
 العرب هؤلاء عن جالينوس .. بل يجب أن نعود  
 الى احدث المراجع في زمننا هذا .

وهذا لا يضير هذه الكتب .. بأي حال من  
 الاحوال ذلك ان مقالة تنشر اليوم عن جالينوس  
 مثلا .. قد تجعل مقالة نشرت في مطلع هذا  
 القرن .. قديمة ولا يجوز الاعتماد عليها ..

واذا كانت كتب التراجم العظيمة التي ألفها



طب العين في مصر القديمة ومنتها بالقرن التاسع عشر •

وقد تمكن هيرشبرغ بفضل معرفته للغات •• من أن يعرض عددا من كتب طب العين التدريسية عند العرب •• وان يترجم بالتعاون مع مستشرقين آخرين المانيين ( ليبرت ومنفوخ ) بعض كتب طب العين العربي الى الالمانية •

وعلى الرغم من كل الدراسات التي جاءت في هذا القرن في حقل تاريخ الطب العربي فان قصب السبق يظل لهيرشبرغ •

ففضله أصبحت الطريق الى دراسة طب العيون عند العرب ممهدة •• وظلت فنون الطب الاخرى تحتاج الى رائد مثله •

وقد جاء بعده هيرشبرغ طبيب العيون الالماني — اليهودي — مايرهوف •• الذي قضى شطرا من حياته كبيرا في القاهرة •• ذلك لانه أحب هذه الدراسات التاريخية من جهة • ولان النازية كان قد ذر قرنهما في المانيا من جهة ثانية • جاء مايرهوف ليكمل طريق هيرشبرغ العظيم •• فعمل بدوره أيضا مع بروفر حيناً • ومع الاب سباط حيناً آخر •• ومع غيرهما أحيانا أو عمل منفردا •• فنشر عددا كبيرا من المقالات الرائعة حول طب العيون العربي •• وحول الطب العربي عموما •• ولعل عمله في نشر كتاب حنين بن اسحق هو أضخم أعماله على الاطلاق •

يبد أن الدارس العربي الآن في حقل تاريخ الطب عموما أصبح أيسر حظا •• فان كتاب بروكلمان ( تاريخ الادب العربي ) ثم كتاب

الوطنية في باريس • وكتب كتابه العظيم ( الطب العربي ) ونشره قبل أكثر من مائة عام • وصار يعد من ذلك الحين مرجعا هاما لا يستغنى عنه لدراسة هذا الجانب من جوانب الثقافة العربية • ومن المؤسف •• ان قرنا كاملا مر على صدور هذا الكتاب •• الذي لم يفقد قيمته بعد •• وان أصبح غير كاف للدراسة •• وأصبحت بعض المعلومات الواردة فيه قديمة •• وتجاوزها البحث مؤخرا •• من المؤسف ان هذا الكتاب لم يترجم بعد الى العربية • ونأمل أن ينهي الدكتور سلمان قطاية ترجمته وطبعه •

وكذلك كتب براون كتابا آخر عن الطب العربي •

ولكن العمل العظيم الذي لا يشق له غبار •• في حقل تاريخ الطب العربي هو •• العمل الذي قام به هيرشبرغ أستاذ طب العيون في جامعة برلين في مطلع هذا القرن • فان هيرشبرغ أوكل اليه عن جدارة أن يكتب ( تاريخ طب العيون ) في كتاب عظيم ألفه الاساتذة الالمان كان فريدا من نوعه في مطلع القرن العشرين • ليكون مرجعا لأطباء العين لدراسة هذا الفن •• من جميع جوانبه • فكان حاويا لتشريح العين ووظائفها • والعلوم الاساسية الطبية والحيوية المتعلقة بها •• وأمراض العين وجراحاتها • وجميع العلوم والفنون المشتركة معها • أو الضرورية لفهمها • هذا الكتاب هو ( كتاب طب العيون )

وقام هيرشبرغ بكتابة تاريخ هذا الفن الجراحي الذي كان يدرسه في جامعة برلين بادئا

سركين ( تاريخ التراث العربي ) جملا مهمته  
أسهل من ذي قبل .

اضافة الى المرجعين الهامين الآخرين ( قاموس  
الاعلام للزركلي ) ( ومعجم المؤلفين ) لعمر رضا  
كحالة .

ولكن من أبدع ما كتبه العرب في هذا  
القرن .. في هذا المجال هو كتاب الاستاذ سامي  
خلف حمارة .. ( بيلوغرافيا الطب والصيدلة في  
الاسلام في العصر الوسيط ) .

ولعل ابتداء عصر اهتمام العرب بتاريخهم  
.. وقيامهم بالابحاث حوله .. ليس تقليلا  
لشأن المستشرقين أو غير العرب .. وانما قياما  
بالواجب القومي ..

وعلى الرغم من ان التراث والتاريخ والعلم .  
وكل هذه الامور ملك للبشرية جميعا دون أي  
شك . فان من واجب الناطقين بالعربية ان ينهضوا  
للقيام بالمهمة .. : - تحقيق هذا التراث العظيم  
والتعليق عليه . واجراء الدراسات حوله . بروح  
الجدية والتجرد .. لوجه العلم وتوخيا للحقيقة .  
وهم أقدر من غيرهم ذلك لان هذا التراث مكتوب  
بلغتهم .

وان ظهور أمثال الاب سباط والاب قنواتي  
والاستاذ خير الله والاستاذ منتصر والاستاذ  
طوقان والاستاذ حداد والاستاذ الشطي .  
والاستاذ شحاده . والاستاذ قطاية والدكتور  
التجاني الماحي .. وما كتبوه في هذا الحقل ..  
وما كتبه زملاء لهم آخرون لدليل . وبشير ..  
على عودة العرب الى الاهتمام بتاريخ الطب في  
تراث أمتهم والافادة منه .

وقد أردت في هذه الوجيزة أن أقدم أمثلة  
فقط .. فقد كنت مدركا صعوبة حصر اسماء  
المؤلفين والعلماء والباحثين .. ولكن قراء هذا  
الكتاب - اذا لم يكتفوا بطرف الخيط هذا ..  
فان بإمكانهم العودة الى الكتب المتخصصة ذات  
الطابع العلمي الجاد .

فمثلا .. ابن أبي أصيبعة يقف في كتابه عند  
القرن الثالث عشر الميلادي .. فمن أراد أن يعرف  
ماذا قدم العرب بعد هذا العصر .. عليه ان يراجع  
حاجي خليفة في كشفه أو البغدادي في ذيله عليه  
أو أحمد عيسى ييه . أما اذا كان ملما بغير  
العربية فالامر يختلف واذا كان متقنا للغة أوروبية  
أو أكثر فان أبواب مكتبات العالم تنفتح  
بين يديه .. عشرات المؤلفات . ومئات  
المجلات المتخصصة . وآلاف المقالات .. ومن  
أراد أن يلج الابواب فالطريق أمامه أصبح  
معبدا .. وما أكثر الجامعات والمعاهد التي  
يسعدها أن تأخذ بيده .. اذا أراد أن يعمل .  
ويسرها أن ترشده اذا أراد أن يقرأ ويفيد .

يوحنا بن ماسويه

١٦٠ - ٢٤٣ هـ

٧٧٦ - ٨٥٧ م

حفظت كتب الاقدمين لنا وصفا دقيقا  
لشخصية هذا الطبيب .. الاستاذ .. التي لا تقل  
اعتدادا بذاتها من أي أستاذ في أكاديمية عصرية  
للطب .. ومع ذلك .. ورغم القسوة الظاهرة  
أحيانا في حديثه مع تلاميذه .. فانه كان مقربا من  
الخلفاء العباسيين الذين عاصروهم ..

جاء والده الطبيب من جند يسابور التي

العين) وثانيهما ( معرفة محنة الكحالين ) ..  
وعلى الرغم من أن ابن أبي أصيبعة يذكر لنا  
اسماء اثنين واربعين كتابا في الطب فهما ابن  
ماسويه .. الا اننا نعثر على اقتباسات من كتب  
أخرى لم يذكر اسمها ابن أبي أصيبعة وقد وردت  
هذه الاقتباسات في كتاب الرازي العظيم  
( الحاوي ) .. ولقد كان ابن ماسويه قليل الحظ ..  
فلم ينل من مؤرخي الطب اهتماما كبيرا لذلك فان  
الكثير مما روته عنه المصادر ما يزال بحاجة الى  
التدقيق .. فقد روت بعض المصادر انه كان  
يشرح القردة .. التي تأتي اليه من مصر .. الا أن  
دراسة وافية للمعلومات التشريحية في كتبه ..  
ما تزال تنتظر من يقوم بها لاثبات أو نفي هذه  
الرواية على أساس المعلومات التي وردت في كتبه  
في مجال التشريح .. ومقارنتها بمعلومات  
الأقدمين .. لمعرفة ما اذا كانت رواية التشريح  
هذه صحيحة ..

وعلى الرغم من عظمة هذا الاستاذ  
والمؤلف .. الا أن انشغاله بإدارة المستشفى  
وبالتعليم والتأليف .. وصحبته للخلفاء ..  
تضافرت جميعا .. ومنعته من أن يعطي وقتا كافيا  
للممارسة الطبية .. لذلك فاننا نعتقد في كتبه  
الملاحظات السريرية الشخصية ..

ومع ذلك فان تاريخ الطب يشهد له بفتح  
عظيم .. فهو أول من وصف ( السبل ) هذا المرض  
الذي يتظاهر بتشكيل أوعية دموية على القرنية ..  
والذي يعود سببه الى التراخوم ..

والمؤكد ان المؤلفين الاغريق لم يعرفوا هذا  
المرض .. نظر الخلو بلادهم منه .. فهل ياترى ..

كانت أعظم مركز للطب في ذلك العصر .. فيها  
ازدهر الطب اليوناني .. واغتنى بعناصر هندية  
وفارسية .. بل وبعناصر أقدم .. ذات منشأ  
بابلي .. جاء الى بغداد .. عاصمة الدنيا في ذلك  
الوقت وكان يوحنا فتى يوم وصل الى بغداد فقد  
ولد حوالي ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م .. وتمتع يوحنا  
بتربية صارمة في وسط علمي وفي بيت محترم ..  
ومرموق .. وتعلم الطب من والده .. ثم خلف  
والده بعد وفاته وأصبح رئيس المستشفى في  
بغداد .. الذي كان يعمل والده فيه .. كما قال  
مركزا رفيعا في بلاد الرشيد وأصبح طبيبه ..

وظل في مركزه المحترم من عصر الرشيد حتى  
عصر المتوكل .. طبيبا للخليفة العباسي في بغداد  
أولا .. ثم في سامراء ..

ولما كان ابن ماسويه ينحدر من اسرة  
سريانية .. فانه لم يكن يمتلك ناصية اللغة  
العربية كما كان الامر عند حنين بن اسحق تلميذه  
ولم يكن كذلك متقنا للغة اليونانية .. ولذلك فان  
تعبيره للتعبيرات الطبية الفنية كان معتمدا على  
الاساس الفارسي أو السرياني .. وليس  
اليوناني .. ومع ذلك فان بعض مصادرنا تروي  
انه قام بالترجمة من اليونانية الى العربية ..  
وهو ما يبدو لنا مفتقرا الى الدقة ..

وتروي المصادر لنا أيضا .. أن يوحنا ابن  
ماسويه كان يذهب الى بيزنطة للحصول على  
كتب الطب والاتيان بها الى بغداد ..

وكان غزير الانتاج الطبي عموما .. وكتب  
في مجال طب العين كتابين هامين : أولهما .. ( دغل )

وكتاب ( دغل العين ) هذا هو اقدم كتاب تعليمي في طب العين كتب بالعربية ..

وهو أقدم كتاب تعليمي في طب العين ما تزال البشرية تمتلكه ذلك ان كتب اليونان الماثلة والسابقة في عصرها لهذا الكتاب قد ضاعت كلها فلم يصلنا منها شيء الا من خلال الترجمات أو الاقتباسات العربية .

ويتميز اسلوب هذا الكتاب بحيوية .. بارزة .. تشير الى الصلة القائمة بين الاستاذ المحاضر وبين طلبة الطب .. مما قد يدعونا الى الظن .. بان هذا الكتاب أو بعض فصوله .. ربما كان قد كتبه أحد أو بعض طلاب ابن ماسويه .

ويعلق مؤلف الكتاب أهمية كبرى على استجواب المريض .. وعلى تأمله .. تماما كما تفعل اليوم ..

اما المصطلحات الفنية التي يعتمد عليها الكتاب فقد ترجمها المؤلف عن الفارسية أو السريانية .. فجاء تعريبه مختلفا عن تعريب تلميذه حنين بن اسحق .. الذي اعتمد اليونانية مصدرا للترجمة . فبلورة العين .. أو العدسة .. كما فصّلح اليوم على تسميتها .. عربها ابن ماسويه قائلا - البردية - مشبها اياها بحبة البرد .

اما حنين .. فانه عربها قائلا ( الرطوبة الجليدية ) لانها جسم رطب يشبه الجليد ..

وما نسميه اليوم قميصا في العين ونعني به جزءا من غلاف العين .. قال عنه ابن ماسويه انه ( حجاب ) بينما قال عنه حنين ( طبقة ) .

وعلى الرغم من ان كتب جالينوس في تشريح

عرف ابن ماسويه هذا المرض ووصفه نتيجة لممارسته الشخصية .. أو انه تعرف عليه .. من بعض الاطباء الذين اتصل بهم .. أو تتلمذ عليهم أو استفاد منهم ؟ خاصة .. وان ابن ماسويه يصف عملية جراحية لهذا المرض . ظلت هذه العملية توصف في كتب طب العين العربية حتى القرن الرابع عشر الميلادي .

وكتاب ابن ماسويه ( دغل العين ) لم تبق منه الا نسخ نادرة .. مكتوبة بخط رديء .. تشيع فيها اخطاء لغوية تؤكد ان الناسخ لم يكن جديرا بنسخ مثل هذا الكتاب العظيم ..

ومن الغريب ان بعض الباحثين الكبار في تاريخ الطب العربي .. مثل مايرهوف .. يعزون ضعف الاسلوب . وركاكته ورداءة اللغة الى المؤلف .. هذا الامر الذي ما كان يجوز لرجل مثل مايرهوف أن يتردد أمامه .. فكم أساء النساخ الى أصول الكتب .. وهل كان يعقل ان كتابا يكتب في العصر العباسي الاول .. وفي بلاط الخلفاء .. كان من الممكن أن يظهر الى النور بعربية رديئة ؟

واغلب الظن ان ابن ماسويه اعتمد على الكتب المكتوبة باللغة السريانية لمراجع اساسية لكتابه كما اعتمد عليها .. في اقتباساته لاراء الاطباء الاغريق .. مثل ابقراط وجالينوس وايرازستراتوس واهرن القس .

ومن أهم ميزات هذا الكتاب هو وجود الاقتباسات العديدة من المصادر الهندية ( كنكا ) .. أو السريانية ( اشليمون ) .

العين وغزائرها كانت قد ترجمت الى السريانية قبل عصر يوحنا ابن ماسويه . فاننا لانجده في كتابه هذا يتبع تشريح جالينوس للعين .

ومن غير المعقول ان يكون يوحنا بن ماسويه غير عارف بوجود لهذه الترجمات وغير مطلع عليها .

فهل كان ابن ماسويه لايحصل بتشريح جالينوس . . أم ان بعض تلاميذه الذين نفترض انه كتب بعض أو كل محاضرات ابن ماسويه هو الذي أهمل التفصيلات التشريحية المأخوذة عن جالينوس واكتفى بالقليل الذي ذكرته المصادر السريانية .

اما الاعمال الجراحية على العين فان ابن ماسويه يعرضها عرضا موجزا . . فما يرجح ظننا بان ابن ماسويه لم يمارس الطب ممارسة كافية . وهذا الكتاب الذي نحن بصدد مختصره . . يحتوي على ٤٧ فصلا . . حصة علم الفرائز فيها قليلة . . وخاصة ( نظرية الابصار ) . . وهذا يطرح علينا سؤالا آخر . . عن علاقة ابن ماسويه بالمصادر الاغريقية . . التي اطنبت في عرضها لنظرية الابصار . . وتتناقص فيها اصحاب النظريات . .

اما كتابه الاخر ( معرفة محنة الكحالين ) فهو كتاب شديد الاهمية ايضا لانه كتب على شكل السؤال والجواب وهو اقدم كتاب عربي طبي الف على هذا الاسلوب . وهو يختصر كل علم امراض العين . . في عدد محدود من الاسئلة . . لكي يدرسها طلبة الطب . . وهو يقدم مادة مقتضبة ومكثفة .

وقد أصبح هذا الاسلوب متبعا ومحبوبا من قبل الاساتذة العرب . . فالف حنين كتابا من هذا القبيل . . سمي ( المسائل في العين ) وتبعه الرازي واخرون .

ولم يقتصر هذا النوع من التأليف على طلب العين . . بل شاع في مختلف فروع الطب . . وقد اقتبس الكثيرون من كتابي ابن ماسويه هذين . . نذكر منهم الرازي والقمري .

### حنين بن اسحق

لا يختلف اثنان أن حنينا بن اسحق ( من أحسن رجال التاريخ خلقا ) . . وهو اضافة الى ذلك أحد عباقرة الترجمة في تاريخ البشرية كلها .

وقد الف حنين بن اسحق كتابا طائر الصيت يعتبر أول كتاب تدريسي في طب العين مؤلف على الطريقة العلمية .

وهذا الكتاب له قصة واعادة اكتشافه لها قصة أخرى . .

الا ان القصة التي يجب أن نبدأ بها . . هي قصة المؤلف . . ومنبته في الحيرة .

### الحيرة :

فعلى بعد قليل من مدينة النجف العراقية . . وقبل أن تبني الكوفة . . ازدهرت مدينة الحيرة مركزا للملوك اللخمين .

واسم هذه المدينة : أصله آرامي ومعناه « المخيم » = « حرتا » لان امراء اللخمين اقاموا هناك مخيماتهم الثابتة في ظل سيادة الفرس .



وقد تطورت المدينة .. ثم جاءت النصارية وانتشرت فيها بين عامة السكان ثم تنصر أمراؤها أنفسهم في آخر الامر .

ونجد حينما نقرأ تاريخ الكنسية الشرقية ذكر الممثلة نصارى الحيرة في أخبار المجامع الدينية . وذلك بدءا من مطلع القرن الخامس الميلادي . وقد بنت هند أم الملك عمرو ديورا في أوائل القرن السادس . عرف فيما بعد باسمها . وقد اشتهرت الحيرة فيما اشتهرت به بقصورها : كالابلق والخورق وقصر العدسيين . وفيها راجت الكتابة بالعربية وانتشرت منها الى أنحاء الجزيرة العربية فكان لها فضل في نشوء وتطور الخط العربي .

وقد تجمع فيها عدد من المسيحيين جاء وامن قبائل عربية مختلفة ومن جهات متعددة . وسموا أنفسهم ( بني عباد ) اشارة الى انهم ( عباد الخالق ) .. ومن هؤلاء انحدر أبو زيد حنين بن اسحق .. وولد الصيرفي .. وبائع أدوية وأعشاب طبية .

وكان خالد بن الوليد قد اتجه الى الحيرة .. فاستسلمت دون حرب ثم بنيت الكوفة عن بعد ثلاثة أميال الى الشمال منها مما أدى الى تضاؤل شأن الحيرة بعد الاسلام .

وشاء سوء طالع هذه المدينة أن لا يكثرها الخلفاء العباسيون عاصمة لهم مما أدى الى اضمحلالها .. واضمحلال الاقليم المحيط بها . ولكنها كانت في القرن التاسع ما تزال عامرة .. حين ولد فيها في مطلع هذا القرن حنين بن اسحق الذي قيس له أن يكون أحد مشاهير الرجال في

التاريخ . وأحد أكبر عباقرة البشرية .. في الترجمة .

وقد كان حنين ميالا الى دراسة الطب .. ودخل في عداد تلامذة الاستاذ الكبير يوحنا بن ماسويه .. وكان حنين ميالا الى الاكثار من الاسئلة . ولعل يوحنا قد ضاق ذرعا باستلته ذات يوم . فلم يكن لطيفا في الرد عليه . وقال له كلاما قلل فيه من شأنه . باعتبار أنه من أسرة غير طيبة وكأنما صنعة الطب وقف على طبقات معينة في المجتمع . ولم يحتمل حنين المهرق الحص هذه الالهانة .. التي وجهها الاستاذ « المتعجرف » فغادر مجلسه ولم يعد ودرس لغة الاغريق . وجاب أنحاء البلاد حتى أتقن هذه اللغة .. اضافة الى اتقانه للغة السريانية .. والى مقدرته النادرة في لغته الام ( العربية ) وقد عرف حنين السريانية أيضا منذ طفولته .. بفضل نشأته الدينية .. اذ كان شماسا . يلبس « الزنار » .

ولما أتقن حنين هذه اللغات .. وأصبح فارسا في هذا الميدان عاد الى موطنه وعمل في الترجمة . واشتهر كترجمان .. ينقل من الاغريقية الى السريانية . أو الى العربية ومن السريانية الى العربية . فأصلح كثيرا من ترجمان أسلافه وزملائه الترجمة الذين وقعوا في بعض الاخطاء الناجمة عن ضعفهم في احدي هذه اللغات الثلاث . ثم لمع نجم حنين . وأصبح ترجمان الخلفاء . وطبيهم وجلسهم . وتعرض الى مجموعة من الدسائس والمؤامرات .. من حساده .. وخصومه .. فلم ينزل الى مستوى المهارات . ولم يفقد ايمانه بالله . ولم يتنازل عن مبادئه

والشخصية والمهنية .. تميزه بين أطباء الملوك في كل تاريخ الطب ..

وكلنا يعرف كيف استخدم معاوية بن أبي سفيان أطباء البلاط لدس السموم لخصومه السياسيين .. فما ازداد حنين في عيونهم الا عظمة وشموخا .. عن ابي أصيبعة ..

جالينوس وحنين :

لقد اطلع حنين على كتب جالينوس وترجم عددا كبيرا منها وقد لخص ما يزيد على خمسة عشر كتابا من كتبه المتعلقة في طب العين والعلوم التابعة له .. تلخيصا بديعا في تسع مقالات - كتبها في مدة تزيد على الثلاثين عاما ..

وبعض كتب جالينوس هذه مفقودة لا نعرفها الا من خلال كتاب حنين هذا .. وبعض الكتب التي اعتمد عليها جالينوس مفقودة أيضا لا نعرف من محتواها الا ما لخصه حنين ..

وقد جمع حنين هذه المقالات ثم أضيفت اليها لاسباب غير مؤكدة بعد ، مقالة عاشرة حول أدوية العين المركبة .. ويقال ان مقالة أخرى قد أضيفت الى هذا الكتاب تبحث في العمليات الجراحية التي تجرى على العين ..

ومهما يكن من أمر الكتاب وأسباب جمع هذه المقالات .. ودور حبش ابن أخت حنين في جمعها أو دعوة خاله الى جمعها .. فان الكتاب يلخص تلخيصا رائعا كل ما خلفه جالينوس .. في هذا الحقل ..

فهي تعرف تشريح العين والعصب البصري - والدماغ .. كما تشرح نظرية الابصار ..

وأخلاقه .. فازداد أصحاب الامر ثقة به .. واعجابا .. وأصبح رجلا مهيب الجانب .. ليساعده ابن اخته .. حبش .. وابناه .. ومجموعة من تلاميذه في أعمال الترجمة .. في شتى العلوم .. ومنها العلوم الطبية ..

وترك هؤلاء وعلى رأسهم أستاذهم حنين .. دويا في تاريخ العلوم .. ليس له مثل .. في أي زمان وأي مكان ..

ولقد روى ابن أبي أصيبعة قصة حياة حنين .. وما تعرض له من دسائس وكيف تغلب عليها .. وذكر قصة تجواله بحثا عن العلم .. وطلبها لا ثقائه اللغات .. اللازمة لرجل العلم في ذلك العصر .. كيف عاد الى البصرة .. لكي يتمكن من فنون اللغة العربية ويتعرف على مجالس لغويها ..

ويحكي لنا صاحب ( عيون الابناء ) أيضا كيف استقبل هذا الفتى حين عودته .. وكيف وثق به اساتذته .. وكيف عاد يوحنا بن ماسويه .. الى ملاطفته وكيف تعرف عليه الخلفاء العباسيون من خلال صلته بال يختيشوع اطباء البلاط العباسي .. وأساتذة جنديسابور الكبار .. ثم كيف أوكلت اليه مهمة العمل في ( دار الحكمة ) ..

ثم يروي مؤرخنا العظيم ( ابن أبي أصيبعة ) قصص النكبات والشدائد التي حلت به .. وكيف صمد في وجهها بكل ايمان .. وثقة بالنفس .. وكيف ازداد اكبار الخليفة له واحترامه اياه .. حينما رفض أن يستخدم علمه .. في سبيل الاذى .. وأن يسخر الطب من أجل القتل السياسي للخصوم .. فأظهر بذلك مستوى من الاخلاق

وعلم الامراض والاسباب والعلامات .. وتصنف  
أيضا أدوية العين المفردة والمركبة ..

وقد كان هذا الكتاب واسع التأثير على  
جميع المؤلفين العرب الذين جاءوا بعد القرن  
الميلادي التاسع ..

فان علي بن عيسى كحال بغداد الشهير ..  
وأحد أعلام الكحلة عند العرب .. وكذلك عمار  
ابن علي الموصلي . ح . الذي استقر آخر أمره في  
مصر . والذي يعتبر أشهر جراحي العين العرب ..  
عبر العصور .. بل أحد أهم جراحي التاريخ  
كلاهما قد اعتمدا .. اعتمادا واسعا على كتاب  
حنين هذا .. وكذلك خليفة بن ابي المحاسن  
الحلبي . وصلاح الدين بن يوسف الحموي ..  
الذين ألفا كتابين تدريسيين من أهم ما ألفه  
الكحالون العرب ..

ونقل عنه أيضا ابن الاكفاني والشاذلي  
الذين عاشا في مصر في القرن الثامن للهجرة  
(الرابع عشر الميلادي) كما طار حديث الكتاب غربا  
فوصل الى الاندلس .. وذكره .. واقتبس منه  
الغافقي في القرن السادس الهجري .. وطار صيته  
شرقا فاقبس منه الجراح ( ذو اليد الذهبية ) أبو  
روح بن منصور الجرجاني في كتابه الشهير ( نور  
العيون ) الذي كتبه بالفارسية .

والذي يعتبر أول كتاب طبي عيني في الاسلام  
كتب باللغة الفارسية على ان أهم الاقتباسات عن  
هذا الكتاب هي تلك التي أوردها الرازي في  
موسوعته الحاوي هذه الموسوعة التي لم ترالنور  
الا بعد وفاة صاحبها .

ولقد تميز كتاب حنين هذا على الرغم من

عهده المبكر .. بانه احتوى على بعض الصور  
التشريحية الجميلة والملونة والواضحة ..  
وما زلنا .. لحسن الحظ .. نمتلك نسخة  
في القاهرة .. فيها هذه الصور هيرشبرغ  
ومايرهوف والبحث عن هذا الكتاب :

حينما كتب هيرشبرغ كتبه .. عن تاريخ  
طب العيون .. لم يترك مؤلفا لاتينيا في العصور  
الوسطى الا وقرأه .. كما جمع كل ما كان معروفا  
في أيامه من المخطوطات العربية .. وعهد بترجمتها  
الى اثنين من كبار المستشرقين ..

وكان من جملة ما قرأه هيرسبرغ هو النص  
اللاتيني المترجم عن العربية للحاوي .. والذي  
أمتلا بالاقتباسات عن حنين ..

كما عثر هيرشبرغ على كتابين لاتينيين  
مطبوعين .. احدهما اسمه . ( كتاب جالينوس  
في العيون من نقل ديمتريوس . والآخر ..  
اسمه ( كتاب قسطنطين الافريقي في العين ) .  
 ويفترض أن يكون ديمتريوس قد ترجم الكتاب  
الاول الى اللاتينية . من لغته الاصلية ..  
كما يفترض أن يكون قسطنطين الافريقي  
قد ألف الكتاب الثاني ..

وبمقارنة الكتابين .. تبين لهيرشبرغ انهما  
كتاب واحد .. على الرغم من رداءة اللغة وسوء  
الطباعة في الكتابين .

وقد تمكن هيرشبرغ من أن يحدد أن كلا  
الكتابين .. مترجم عن حنين .

وذلك بالعودة الى الاقتباسات الموجودة  
في الحاوي .. بطبعته اللاتينية التي لا تقل سقما  
من حيث الترجمة والطباعة عن مثيلتيها المنحولتين .

ولما كان الترجمة اللاتين قد عرفوا بضعف قدرتهم على الترجمة بسبب قلة اتقانهم للعربية.. ولما كان الاتحال منتشرا جدا بينهم في العصور الوسطى فقد عرف هيرشبرغ انه أمام كتاب حنين مترجما الى اللاتينية مرتين .. دون الاشارة الى المؤلف .

فمن غير المعقول أن ديمتريوس شاهد كتب جالينوس كلها .. ثم قرأها وترجمها .. فجاءت ترجمته متطابقة تماما مع أسلوب حنين .. الذي درس هذه الكتب وهضمها .. ثم كتبها بالعربية .. على مدى يزيد على الثلاثين عاما .

وعاد هيرشبرغ الى وصف ابن أبي أصيبعة لكتاب حنين .. واستعرض تسلسل الفصول فيه . فوجد تطابقا تاما .. مما أعطى البرهان الساطع .. على صحة ما ذهب اليه .

ولكن .. أين الكتاب باللغة العربية ؟

لم يكن هيرشبرغ قد عثر عليه . كما لم يكن قد عثر على الحاوي باللغة العربية أيضا . وكان على الاوساط العلمية أن تنتظر مجيء مايرهوف لينجز هذا العمل الضخم .

فقد عثر مايرهوف على نسختين من هذا الكتاب احدهما في القاهرة في مكتبة خاصة . والآخر في لينينغراد .

وقد تمكن مايرهوف من ترميم هذا الكتاب بكل دأب وصبر وبدقة متناهية ..

وعاد مايرهوف ليعرض الكتاب على أحد كبار المستشرقين الذي سلخ قسما من حياته وهو يدرس حياة حنين ولغته وأعماله كترجمان .. وذلك لكي يتأكد من أن هذه اللغة وهذا الاسلوب هما لحنين .

هذا الاستاذ الكبير هو بيرجشتراسر في ميونخ ..

وقد قرأ الاستاذ النص العربي باهتمام شديد .. ونبه مايرهوف الى بعض الاخطاء التي وقع فيها في عمله .. كما أصدر حكمه على الكتاب مبينا أن هذه اللغة التي كتب بها .. هي ليست لغة حنين دائما . ولا عجب فان حنين كتبه على مدى يزيد على ثلاثين عاما .. وربما جاءت الصياغة النهائية للمادة .. مرة على يد حنين .. ومرة على يد ابن اخته حبش .. ومرة على يد تلاميذ آخرين .. لذلك .. لم يعد أمامنا .. الا أن نقول .. ان هذا الكتاب هو كتاب ألفه حنين .. ووصل الينا بلغة أخرى .. فان نسختنا المحققة والمطبوعة .. اذن نسخة منسوبة الى حنين .. كما عبر مايرهوف ..

وهذا لا يقلل من قيمة الكتاب بالنسبة الى دارسي الطب .. ولكنه بالتأكيد يقلل من قيمته بالنسبة الى المؤرخين ودارسي اللغة .

واذا أردنا أن نستعمل التعابير العصرية .. فاننا نقول ان علمي التشريح ووظائف الاعضاء قد احتوت عليهما المقالة الاولى . بينما غلبت على المقالة الثانية الدراسة السببية للأمراض . وخصصت المقالة الثالثة لاعراض الامراض وعلاماتها .

وقد ذكر أن حنينا كتب عددا من المقالات القصيرة أو الرسائل .. بعضها يشبه بعض مقالاته التي وردت في كتابه الاول .. وبعضها ربما كان شيئا جديدا .

وقد رأى الاب سباط بعض هذه المخطوطات في مكتبات خاصة في حلب .

أسلوبه وتسلسله المنطقي .. فهو يطالعنا أولاً بتوضيح ماهية المرض وشرح طبيعته . ثم يذكر أعراضه وعلاماته . وأوصافه ومميزاته وبعدها ينتقل الى ذكر أسباب هذا المرض . وفي النهاية يذكر المعالجة .

وفي المعالجة .. لا يجيد عن أسلوبه العلمي أبداً . فهو يبدأ بالمعالجات العامة التي تطبق على الجسد لفائدة العين المريضة .. ثم يذكر الادوية الموضعية التي تطبق على العين .

وهذا النموذج من الكتب المدرسية .. ما يزال نعال نعمل وفقه حتى الآن .. أي منذ ألف عام .. فأسلوب علي بن عيسى هو الأسلوب الذي ما يزال يحكم طريقة التصنيف والتأليف والتدريس في مادة أمراض العين .

ويعتبر هذا الكتاب حتى اليوم قطعة فريدة بين كتب التدريس .. من حيث اصالته وسبقه ودقته ومنهجيته وأسلوبه . لذلك فلا تعجب اذا عرفنا ان طلاب الطب انصرفوا عن الكتب الأخرى ما عداه .. وظل مرجعاً للدارسين على مدى ثمانمائة عام . كما ان الأطباء اعتمدوا عليه .. وهذا الكتاب اذا قورن بكتب حنين يعتبر خطوة هائلة الى الامام .. ولا تعرف البشرية خلال القرون الثمانية التي تلت صدوره .. كتاباً يعادله في القيمة .

وكان على البشرية ان تنتظر انتصار الافكار القائلة بأن موضوع الساد هو في البلورة وليس أمامها خلافاً لما ذهب اليه جالينوس .. وكان عليها أن تنتظر ظهور نظريات (كلير) في البصريات لكي تحصل على كتاب يتفوق على كتاب علي بن عيسى

الا أنها لم توصف ولم تدرس بعد . وقد أصبح مصير هذه المكتبات مجهولاً . للأسف . وانا نجد انه أصبح من الضروري الآن .. بعد نشر كتابي حنين الرئيسيين وبعد نشر ( الحاوي ) .. أن تجرى دراسة مجددة للمادة العلمية التي كتبها حنين .. اعتماداً على كل هذه النصوص والمقتبسات لكي نعرف مقدار التجديد .. الذي أجراه حنين على فن طب العين .. ومدى التقدم الذي أحرزته كتبه التدريسية قياساً الى الكتب الاغريقية ..

فمن الواضح أن حيناً كان أهم مرجع اعتمد عليه الكحالون العرب في تأليفهم في العصر الذهبي فأضافوا اليه من معلوماتهم وملاحظاتهم السريرية وخبرتهم المستقاة من العمل في المشافي وفي الممارسة الخاصة بعد أن نسقوا هذه الملاحظات بشكل منهجي .

علي بن عيسى :

وهذا أيضاً أحد أعظم أطباء العيون في التاريخ . انتقل بكتب التدريس الى أسلوب جديد في التصنيف . متجاوزاً حنين بن اسحق والاقدمين .

وقد سار على منهج علمي صارم ... مهتدياً بالتقسيم التشريحي للعين . فيبدأ بأمراض الاجفان ثم بأمراض جهاز الدمع .. ثم بأمراض الملتحمة .. ثم ينتقل الى أمراض القرنية فأمراض القرنية وهكذا .. بينما كان المؤلفون قبل عصره يتحدثون عن أمراض العين جملة واحدة دون تصنيفها حسب الاعضاء .

وفي كل فصل من فصول كتابه نرى وضوح

هذا .. أي أن الانتظار طال - حتى القرن الثامن عشر .

وقد أطلق علي بن عيسى على كتابه اسم (تذكرة الكحالين) . ووصفه الباحثون بأنه كتاب منهجي لطبيب مجرب مارس المعالجة والجراحة . كما أن الكتاب يعتبر بحق الكتاب التعليمي الكلاسيكي عند العرب في طب العيون . وقد ترجم هذا الكتاب باكرا الى الفارسية والى اللاتينية ثم طبع مرارا .

وعلى الرغم من أن الترجمة اللاتينية غير مفهومة .. وأحيانا غير مقروءة .. إلا أن أوروبا ظلت بحاجة اليه ردحا طويلا من الزمن .

وقد أعيد اكتشاف هذا الكتاب من قبل مؤرخي الطب في العصر الحديث . ودرس بنصه الاصلي أي بالعربية . ثم ترجم الى كثير من اللغات الأوروبية .. فظهر عندئذ مدى ضعف وركاكة الترجمة اللاتينية وكذلك ترجم جزء من الكتاب ثانيا الى اللاتينية في سنة ١٨٤٥

ويظهر لنا من قراءة هذا الكتاب أن مؤلفه كان مطلعا على ما كتبه ابقراط وجالينوس وديوسقوريدس واورياسوس وبولص وحنين . فهو اذن مؤلف من الدرجة الاولى .. عرف كتب الاقدمين واستفاد منها . وكتب للطلبة فأجاد الكتابة . اضافة الى كونه طبيبا من الدرجة الاولى .

ويبدأ المؤلف بدراسة تشريح العين ووظائفها .. وتقع هذه الابحاث في واحد وعشرين فصلا تشكل مجموعها : المقالة الاولى من تذكرة الكحالين .

أما المقالة الثانية فتبدأ بدراسة الامراض وتشتمل هذه المقالة على أربع وسبعين فصلا .. والمقالة الثالثة تكمل المقالة الثانية وتقع في سبع وعشرين فصلا .

ويستعرض المؤلف : على سبيل المثال أمراض الملتحمة في خمسة عشر فصلا . وكذلك أمراض القرنية . في نفس العدد من الفصول . ونستطيع اليوم أن نقرأ هذا الكتاب مطبوعا بالعربية بفضل دائرة المعارف العثمانية التي نشرته سنة ١٩٦٤ في حيدر أباد الدين بتحقيق الاستاذ غوث محي الدين قادري . وكذلك نستطيع قراءته بالالمانية مع تعليقات هامة عليه بفضل الاستاذ الكبير هيرشبرغ .

وفي نفس الوقت الذي كتب فيه علي بن عيسى كتابه تذكرة الكحالين في بغداد ، ظهر جراح عبقري في الموصل كان كثير الاسفار . واستقر به المقام في مصر . وكتب كتابا مختصرا .. أسماه : (المنتخب في علاج أمراض العين) .

وقد ظهر الكتابان في وقت واحد تقريبا .. وان دراسة الكتابين تؤكد لنا أيا من المؤلفين لم ير كتاب المؤلف الآخر ..

ومع ذلك فافتنا نرى في كتاب عمار الاسلوب نفسه الذي اتبعه علي بن عيسى في التأليف : الالتزام بالتقسيم التشريحي للعين عند تصنيف الامراض وعرض ماهية المرض أولا .. ثم ذكر علاماته وبعد ذلك شرح طرق المعالجة .

ويحق لنا أن نتساءل هنا .. كيف حدث هذا ؟ هل التزم كلاهما بأسلوب سائد في ذلك العصر .. ؟ ام انهما اهتديا في وقت واحد الى

هذا النوع من الاسلوب المنطقي في عرض المادة العلمية للدارسين ؟ أم أن كتابا ظهر بعد عهد حنين .. وقبل عهدهما سبقهما الى اتباع هذه الطريقة ؟ وكان مصدرا لهما ؟

واذا كان الاحتمال الثالث مرجحا .. فمن هو هذا المؤلف .. ؟

لا أريد في هذه العجالة أن أجيب على هذا التساؤل الكبير . ولكنني اجبرني مضطرا أن أشرح باختصار كيف يحاول مؤرخو العلوم - الاجابة عليه .

نحن لا نعرف - من كتب التراجم - بعد عهد حنين . وقبل عصر هذين المؤلفين الا ثلاثة من أطباء العيون .. الذين كتبوا كتباً في هذا الفن . احدهم : أبو علي خلف الطولوني .. الذي ألف كتاب ( النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما ) والذي توفي في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة .

وثانيهما ايمن بن ايمن الذي صنف كتابا هاما اسماء ( كتاب في أمراض العين ومداواتها ) والذي نجد له ذكرا في قائمة الكتب التي اعتمد عليها خليفة بن أبي المحاسن حينما ألف بدوره كتابا في طب العين في مرحلة متأخرة . ولكن خليفة يذكره تحت اسم ( امتحان الكحالين ) . وبهذا الاسم عرفه صلاح الدين بن يوسف واقتبس عنه وثالثهما محمد بن سعيد التميمي .. من بيت المقدس .. ولكن هذا الطبيب لا نعرف له الا كتابا واحدا : ( في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه ) .

ولما كان تعبير ( الرمد ) يستعمل فنيا في ذلك العصر . للدلالة على التهاب الملتحمة الحادة .

حصرا . وليس للدلالة على ( أمراض العين ) عموما كما يستعمل اليوم في مصر فأننا نستبعد أن يكون هذا الكتاب شاملا في أمراض العين شأن الكتابين الاولين .

ولما كان كلا الكتابين مختفيا اليوم .. أو مفقودا .. ولما كنا لا نعرف حتى الآن اقتباسات هامة .. من أي منهما .. فانه من المتعذر - في حدود معرفتنا الآن - ان نجيب على هذا السؤال .. الهام .

ثم : ألا يمكن أن يكون صاحب هذا الاسلوب طبيا أهمل أصحاب التراجم ذكره .. أو طبيا اشتهر ولم يترك لنا مؤلفا في طب العين ؟ وقد نسبنا الى علي بن عيسى .. فضل السبق الى هذا الاسلوب .. ذلك ان كتابه كان الكتاب الكلاسيكي للتدريس .. طيلة ثمانية قرون دون منازع .. وقد ظل هذا الكتاب مترجما على عرشه رغم ظهور كتب متأخرة العهد .. ككتاب خليفة .. الذي أشرنا اليه . أو كتاب صلاح الدين بن يوسف .. أو غيرهما .. من مؤلفي الكتب التدريسية بعد القرن الثاني عشر .

واذا كان كتاب ( تذكرة الكحالين ) قد نال هذه الشهرة وهذا الانتشار . فان كتاب ( المنتخب ) قد رقد في زوايا النسيان .. وكان سيء الحظ .. على الرغم من تفوقه على ( التذكرة ) في كثير من الصفات . ولا نريد هنا مقارنة بين الكتابين فهذا أمر يخرج عن غاية هذا الكتاب . ولذلك فأننا نقر الى علي بن عيسى هذا الشرف .. في أن يكون صاحب الاسلوب الذي سيطر على المؤلفات التي جاءت بعده على مدى ألف عام .